خصائص البحث والمنهج الإلهي في الثوابت والمتغيرات القرآنية

م. م. محمد جابر علوان
كلية العلوم الإسلامية / جامعة بابل / قسم الفقه واصوله

Characteristics of research and the divine approach in the constants and variables of the Quran

Mohammed Jaber Alwan
Islamic sciences - University of Babylon- Fiqh and its foundations
Email : said.mh.1973@gmail.com

Abstract

Inflating the Islamic method in the fields of scientific research In our belief - that it be accepted as a logical fact and a civilized necessity. As for saying that the Islamic scientific method is a logical fact It suffices as a proof of its authenticity that the sciences of the universe and life are Islamic in nature Among the characteristics of the research, the Qur'anic concept is considered the first nucleus of understanding the Qur'an, and the basis for building civilization and urbanization. The nature of the Qur'anic pronunciation makes the student have two important matters: As for the first, it is the methodological danger in approaching its vocabulary and its stars As for the second matter, it is the epistemological necessity, which requires restoring the Holy Qur'an to its centrality in establishing knowledge and sciences. The environment of the Islamic scientific method will be directly inspired by the characteristics and components of the Islamic conception. And that stems from the complete belief that the Islamic constants and variables must be the framework that governs all approaches to considering issues of existence and thought.

Keywords: Quran, Quran, search, thought, Constants.

الملخص

إن الأخذ بالمنهج الإسلامي في مجالات البحث العلمي يجب . في اعتقادنا . أن يقبل على أنه حقيقة منطقية وضرورة حضارية، أما القول بأن إسلامية المنهج العلمي حقيقة منطقية فيكفي شاهداً على صحته أن علوم الكون والحياة إسلامية بطبيعتها , ومن خصائص البحث يعتبر المفهوم القرآني النواة الأولى لفهم القرآن، والمنطلق الأساس لبناء الحضارة والعمران، وإن طبيعة اللفظ القرآني تجعل الدارس له بين أمرين هامين: فأما الأول فهو الخطورة المنهجية في مقاربة مفرداته ونجومه.الأمر الثاني فهو الضرورة المعرفية، حيث تقتضي إعادة القرآن الكريم إلى مركزيته في تأسيس المعارف والعلوم, أن لبيئة المنهج العلمي الإسلامي سوف نستلهمه مباشرة من خصائص التصور الإسلامي ومقوماته وانطلاقاً من الإيمان بأن الثوابت والمتغيرات الإسلامية يجب أن تكون هي الإطار الذي يحكم كل مناهج النظر في قضايا الوجود والفكر.

الكلمات المفتاحية: القرآن , المنهج, البحث , الفكر, الثوابت.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين،

فإن البحث العلمي واحد من أوجه النشاط المعقدة التي يمارسها العلماء باستقصاء منهجي في سبيل زيادة مجموع المعرفة العلمية وتقنياتها، لكن أغلب المشتغلين بالبحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية يعتقدون أن أي دراسات منهجية في كيفية إجراء البحث العلمي لا يمكن أن تأتي بفائدة تعادل التدريب الذاتي للباحث، والاسترشاد بخبرات

المتمرسين في ميدان اهتمامه، عند معادلة المراحل الفعلية في البحث. أما المنظرون . من ناحية أخرى . فيرون أن علمية البحث العلمي إذا ما تركت تماماً للتجارب الشخصية والممارسات العفوية المضيعة للوقت والجهد، فإنها لن تؤتي أبداً كامل أكلها، ولهذا يسعى هؤلاء المنظرون . من العلماء والفلاسفة والمناطقة . إلى تحليل الطرق التي تمت بها الكشوف العلمية، واستنباط بعض التعميمات من آراء العلماء الناجحين لتكون بمثابة قواعد عامة للإرشاد والتوجيه، أو مناهج في البحث العلمي, وبطبيعة الحال، تتطلب فروع العلم المختلفة مناهج مختلفة، ومع ذلك فهناك بعض المبادىء الأساسية والأساليب الذهنية التي تشترك فيها أغلب أنواع البحث العلمي. ويطلق على العلم المعنى بطرائق ومناهج البحث في العلوم، للوصول إلى الحقيقة العلمية أو للبرهنة عليها، اسم (علم مناهج البحث) ، وهو يندرج عادة ضمن موضوعات (فلسفة العلم) التي اتسع نطاق اهتمامها في العصر الحاضر ليشمل دراسة وتحليل كل ما يتعلق بالعلوم ولغتها وتطورها وتقنياتها من مختلف النواحي المعرفية والمنهجية والقيمية والأنطولوجية والاجتماعية والتاريخية وغيرها، وذلك بهدف التعرف على مكانة العلم في حياتنا ودوره في تكوين نظرة الإنسان الشاملة إلى قضايا الوجود والحياة.

والطريقة المتبعة في تكوين علم المناهج منذ نشأته إبان العصور الحديثة تتم عادة بالتنسيق بين خبرة العالم المتخصص في علم من العلوم، وبراعة الفيلسوف أو المنطقي الذي يبحث في تطور العقل الإنساني والتعرف على ملكاته المتعددة، وينحو نحو التعميم واستخلاص الخصائص العامة للمناهج المتبعة في فروع العلم المختلفة، ثم يحاول أن يصوغ نتائجه النهائية على هيئة مذهب في العقل الإنساني من حيث طبيعة اتجاهاته في البحث عن الحقيقة. لكن الصورة المثالية لتحقيق ذلك التنسيق على أكمل وجه بين العلماء والفلاسفة والمناطقة ظلت دائماً المنال، وظهر في هذه الأثناء كثير من الخلط بين المفاهيم والرؤى التي جعلت معالم علم مناهج البحث غير واضحة تماماً في أذهان المثقفين، ناهيك عن مواطن الغموض والقصور التي يزخر بها هذا العلم، حتى بالنسبة لمن يمارسونه بحثاً وتدريساً وتأليفاً.

المبحث الاول

منطلق المنهج الالهي ليعمل به في كل زمان

إن الأخذ بالمنهج الإسلامي في مجالات البحث العلمي يجب . في اعتقادنا . أن يقبل على أنه حقيقة منطقية وضرورة حضارية، أما القول بأن إسلامية المنهج العلمي حقيقة منطقية فيكفي شاهداً على صحته أن علوم الكون والحياة إسلامية بطبيعتها، لأن موضوعات البحث فيها هي كل ما خلق الله في كتابه المنظور. كما أن قراءة التراث الإسلامي تدلنا على أن المسلك الذي اتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث في الوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال قد انسحب على أسلوب التفكير والتجريب في البحث العلمي، فنرى على سبيل المثال أن الحسن بن الهيثم قد استخدم الاستقراء وقياس الشبه في شرحه لتفسير عملية الإبصار وإدراك المرئيات حيث يقول: (لا يتم الإدراك إلا بتشبيه صورة المبصر بصورة قد أدركها المبصر من قبل، ثم إدراك التشابه بين الصورتين، ولا يدرك التشابه بين الصورتين إلا بقياس) كما نجد ابن الهيثم يستعمل لفظ الاعتبار (وهو قرآني) ليدل على الاستقراء التجريبي أو الاستنباط العقلي.

وهذا أبو بكر الرازي يصف منهجه في تعامله مع المجهول مستخدماً الأصول الثلاثة (الإجماع) والاستقراء، والقياس، فيقول: (إنا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الكامل، لم نر أن نطرح كل شيء لا تدركه ولا تبلغه عقولنا، لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا، بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب

وشهد لنا الناس به، ولا نحل شيئاً من ذلك محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له... ما اجتمع عليه الأطباء وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك [1].

وأما قولنا بأن إسلامية المنهج العلمي ضرورة حضارية فذلك لأن إسلامية المنهج، أو أسلمته، من شأنها أن تخلع عليه من خصائص الإسلام ما يجعله عالمياً وصالحاً للتطبيق في كل زمان.

فالتصور الإسلامي يوحي بأن الحركة الدائبة والتحول المستمر هو الناموس الثابت المطرد لهذا الوجود الحادث الفاني، وهو بصفة خاصة قانون الحياة وقاعدتها... ومن ثم يوجه النظر إلى هذه الحركة الدائبة، وهذا التحول المستمر في الكون والحياة، وما يطرأ عليهما دائماً من تقلبات وأطوار، ولكنه ينسب كل شيء إلى مشيئة الله وقدره، فيخرج بذلك من كل المتناقضات التي تعانيها الفلسفات الوضعية والتي لم تجد لها حلاً شاملاً[2].

ونعتقد أن إدراك المسلمين الأوائل لهذه الحقيقة بكل أبعادها الإيمانية كان السبب الأول لتقدمهم ورقيهم، بعد أن وجدوا في مبادئ الإسلام كل مقومات الازدهار العلمي والحضاري، وهدتهم تعاليم الدين الحنيف إلى أصول المنهج العلمي السليم [3].

وعندما انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوربا، فطن علماؤها إلى سر تقدم المسلمين، وسعوا إلى اتباع منهجهم بعد أن وجدوه سمة العلوم في الحضارة الإسلامية، وقال (روجير بيكون) في ذلك: إنه باتباع المنهج التجريبي الذي كان له الفضل في تقدم (العرب)، فإنه يصبح بالإمكان اختراع آلات جديدة تيسر التفوف عليهم... ففي الإمكان إيجاد آلات تمخر عباب البحر دون مجداف يحركها، وصنع عربات تتحرك بدون دواب الجر، وإيجاد آلات طائرة يستطيع المرء أن يجلس فيها ويدير شيئاً تخفق به أجنحة صناعية في الهواء مثل أجنحة الطير [4].

لكن النهضة الأوروبية لم تأخذ من العلوم الإسلامية سوى الجانب المادي من منهجها التجريبي وتتنياتها، وتركت جانباً الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالى، ويسخرها لخدمة البشر؟. ولذا فإن العلم في الحضارة المادية الحديثة والمعاصرة، بتخليه عن الإيمان والسمو الروحي، قد اعتبر قيمة حقيقة مطلقة في حد ذاته، وبالغ الناس في تقديسه وتمجيده على أساس أنه هو القوة القادرة على تحقيق الجنة الموعودة للإنسان على الأرض. فأنصار هذه النزعة العلمية المتطرفة (scientism) يردون كل شيء إلى العلم، ولا يسلمون إلا بالمنهج العلمي والحقيقة العلمية.

كذلك أصبح التطور الكمي للعلم والتقنية غاية في حد ذاته، ونشأت (النزعة التقنية المتطرفة Technocracy) التي يرمي من أنصارها من التقنيين والخبراء الفنيين إلى فرض سيطرتهم باعتبارهم الأحق في هذا العصر بإدارة المجتمع واتخذا القرارات الكبرى بشأنه. وأمام هذا التطرف العلمي، وفي مقابله ظهرت حركات عقلية جديدة تدعو إلى (اللاعلمية Antiscience) وتحارب الانغماس الأعمى في ماديات الحضارة الصناعية، وترفع صيحات التحذير من أن اطراد التقدم العلمي والتقني بدون النظر إلى صلته بمعنى الحياة الإنسانية سوف ينتهي بالإنسان إلى القضاء على حضارته، بل إن بعض هذه الحركات المناهضة لتقديس العلم والتقنية أخذت تدعو إلى الهروب من الحضارة المعاصرة بكل ما فيها من مظاهر مادية خادعة، ورفعت شعارات العودة إلى الفطرة [5].

---

[1] – د. أحمد فؤاد باشا, فلسفة العلوم الطبيعية في التراث الإسلامية ,ص41 .

[2] – سيد قطب, مقومات التصور الإسلامي,

[3] – د. أحمد فؤاد باشا, فلسفة العلوم الطبيعية في التراث الإسلامية ,ص55.

[4] –عبد المجيد عبد الرحيم , مدخل الى الفلسفة بنظرة اجتماعية ,ص80.

[5] – وحيد الدين خان , واقعنا ومستقبلنا في ضوء الاسلام ,35.

من هنا كانت إسلامية المنهج العلمي، أو أسلمته، ضرورة حضارية ملحة لضمان مواصلة التقدم العلمي والتقني مع الحفاظ على إنسانية الإنسان.

ذلك لأن الإيمان الخالص والسمو الروحي يأتيان في مقدمة الخصائص التي يتميز بها المنهج العلمي الإسلامي، وإليهما تعزى كل القوى الدافعة لملكات الباحث العلمي على طريق الإبداع والابتكار. فالإيمان الخالص هو الذي يجعل العقل أقدر على كشف الحقيقة العلمية، وأكثر تهيؤاً لاستقبالها وقبولها. وهل الكشف العلمي إلا حل لمشكلة يظفر به الباحث بعد عناء تحليل منهجي شاق ودقيق، أو يناله في فكرة طارئة، أو في رؤية تتراءى له، أو يخطر له في حلم أو إلهام.

وإذا كان ما حدث في الغرب من انزواء لعلوم الدين في أركان الكنيسة يتعلق بالصراع بين الكنيسة والعلماء، فإنه من الخطأ أن يسود الاعتقاد بأن الانفصال بين العلم والدين شرط من شروط قيام الحضارة، أو أن العلم بفروعه المختلفة لا يمكن غلا أن يكون (علمانياً). لقد أدى هذا الاعتقاد الخاطىء في بلاد المسلمين إلى حالة من الركود العلمي شُلّت في ظلها كل مقومات الإبداع والابتكار في مختلف مجالات النشاط الإنساني [1].

لحياة المحمية بالأمانة من عقوق الآدمي في أنماط السلوك خاصِّه وعامِّه – هي الحياة السوية، التي تَسَنَّمت فيها الروح مكانها، من قيادة الجسم، وتوجيه أنشطته، وترشيد انفعالاته، وترقية شهواته، وهي حياة لا تخنق الاستعدادَ الشهوي ولا تئده، كما يتوهم الأغنياء، فلولا ما ناطه به الحكيمُ من وظيفة تعمير الأرض، لَمَا خلَقَه، ولكنها تحفظه من العبث به من الشيطان، الذي لا همَّ له إلا احتواء البشر في حصيلة كيده المستمر.

فالدنيا منذ شاء الله أن يستخلف آدم مستعمرةٌ له ولذريته، وهي حافلة بكل مشتهى، وللإنسان قابلية فطرية مُودَعة فيه بالحكمة؛ لتلتقي بهذه المشتهيات التي لا حصر لها، والحواس التي هي منافذ الإدراك لهذه المشتهيات، تجهيز إلهي يحكم الصلة بين الإنسان والوجود الذي هو فلذة منه، ولكنه الخليفة فيه.

ولعله لولا اقتضاءُ الحكمة العلية إحلالَ الشيطان هذا الكونَ مع الإنسان، ما احتاج الإنسان إلى وحي السماء يوجهه؛ إذ كانت الفطرة التي خلق الله الناس عليها دينًا كافيًا للإشباع في حدود السلامة من الجشع، وحب الفرد أن يستقطب المنافع كلها لذاته ولو شقي مَن حوله، ولكنه لو كان الأمر هكذا، لما تميز الفاضل من المفضول، ولما وجد البَرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووجود ذلك كل مفروغ من القول فيه؛ لأن حكمة الله اقتضته اقتضاء أزليًّا أبديًّا، يستوجبه كمال أسمائه الحسنى وجلاله.

وهنا يتجلى ميدان الصراع، ويصبح الجهاد للترقي واجبًا للانتصار على عدو البشر، وللسلامة من مصير أقسم عليه متحديًا؛ إذ قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [2]، وليكون المجاهد المترقي غالبًا، لعله داخل في استثنائه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [3]، وإذا تبيَّن بهذا لزوم الجهاد للترقي إلى مستوى النصر على الشيطان، الذي دسيسته في صميم تركيب الإنسان، وهي النفس الموصولة الحس بالشهوات على وجه مستمر – فقد اقتضت حكمة الله أن يسند الصفوة المختارة المستثناة بمنهج هذا الترقي؛ لأن العقل – وإن كان عقالاً للنفس – يعجز أحيانًا كثيرة أمام الحكم بالتحسين والتقبيح؛ للالتباس بمغالطة الشيطان ووسواسه، وخديعته العقلَ بالعلل والبراهين المفتراة، فليُحقَّ الحق، ويُبطَل الباطل، وليتأكد العدل، وتُقام الحُجة، أنزل الله الكتب منهجًا حكيمًا على نجباء الحياة؛ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ

---

[1] – د. يحيى هاشم فرغل , حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريف,ص12

[2] – سورة ص:82.

[3] – سورة ص:83

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (1)، ولو كان العقل وحده كافيًا للحماية والانتصار، لكان الحجة البالغة، وكانت رسالة الوحي نافلة.

وحقيقة مؤكدة: أن النفس البشرية نفس شاعرة، وإن لم تَقُل شِعرًا؛ لأن عالمها الداخلي عالم إحساس وعاطفة ووجدان، وعالمها الخارجي عالم إغراء وإثارة وفتنة، وهذا مناط انطلاق الخيال الذي يزلزل سلطان العقل، وينميه مخدرًا بالسحر والنشوة، ويصور له أن الله ما خَلَق هذين العالمين هكذا إلاَّ للاغتنام قدر المستطاع ﴿ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (2)، وأشباهها من كل مصب لعاطفة، وهاتف بغريزة، وهذا التلبيس حق في ظاهره، باطل مخزٍ في باطنه، والذي يكشف الحق، ويزهق الباطل لعين العقل حتى يحذر – هو منهج الله، الذي لا يَحرِم قوانا الموهوبة من المتعة المسعدة بكل هذه المثيرات، ولكن في إطار من الطُّهر والنزاهة، وبأحكام تعصم من انفلات المؤمن المستجيب إلى حبالة الصائد المحتال، فالرسالات – والإسلام خاتمها، والمهيمن بالتمام والكمال عليها – منهج إلهي منير صاعد، يقيد الضار والقبيح بحكم ربه عليه، وإن حسَّنه العقلُ مخدوعًا بالعلل الكواذب، ويقيد النافع والحسن بحكم ربه عليه، وإن قبَّحه العقل مخدوعًا بالعلل الكواذب, ونظام المعرفي أو المنهج المتّبع فهم التنزيل الحكيم وتقديم قراءة معاصرة له، سواء في موضوع النبوّة أو الرسالة، هدفه العمل على إعادة تأسيس فكر ديني معاصر، لا يتناطح مع ما توصّلت إليه المعارف الإنسانية، باستعمال أرضية معرفية متطوّرة لفهم نصوص التنزيل الحكيم، وإعادة تأسيس فقه إسلامي معاصر يقدّم رؤية مغايرة لعملية التشريع التي يجب أن تتماشى مع التطوّر المعرفي لأيّ مجتمع. على ألّا ننسى أنّ قراءتنا المعاصرة للتنزيل الحكيم ليست القراءة الأخيرة له، لأنّ القول بأنّها الأخيرة يوقعنا في ما وقع فيه السلف والسلفيون والآباء والآبائيون، لأنّ من يدّعي فهم كتاب الله ككلّ من أوّله إلى آخره فهماً مطلقاً، إنّما يدّعي شراكة الله في المعرفة في ضوء قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (3) , وبالتالي فإنّ كتب التفسير التي تفسّر التنزيل الحكيم من أوّله إلى آخره لا تعني شيئاً بالنسبة إلينا من الناحية العلمية وليس لها أيّ مصداقية لأنّها ترتكز في عمومها على التفاسير التوراتية وعلى أسباب النزول وأقوال السلف. أمّا مبادئ منهجنا المعاصر في فهم نصوص التنزيل الحكيم فهي مبادئ ذات أرضية علمية ولها مصداقيتها في التطبيق.

المنهج الفكري

التنزيل الحكيم، كتاب منزل من إله عالم كامل العلم والمعرفة، ذي علم مطلق. لهذا لا يمكن لكتابه أن يحتمل الخطأ أو التناقض. وبالتالي فإنّ فهمه على نحو لامتناقض يحتاج إلى منهج فكري يساعد على التعمّق فيه لإزالة الإشكالات التي قد تبدو لنا فيه قبل ذلك. وقد وضعنا منهجنا الفكري لفهم نصوصه بالارتكاز على ما توصّل إليه كل من علمي اللسانيات والإبستمولوجيا الحديثين. فجاء منهجنا مبنيّاً على المبادئ التالية:

1- لا يمكن فهم أيّ نصّ لغوي إلّا على نحو يقتضيه العقل. 2- اللغة حاملة للفكر الإنساني، لكن الفكر الإنساني يمكن أن يكون صادقاً، ويمكن أن يكون كاذباً، وهذا يعني أن توفر الرباط المنطقي، وصحّة الشكل اللغوي في النصّ، لا يعنيان بالضرورة أنّه حقيقي، وجمال التركيب اللغوي ومتانته في النصّ لا يعنيان بالضرورة أنّه صادق.

---

[1] –سورةالنساء:165.

[2] – سورة آل عمران :14.

[3] – سورة الرعد :43.

من هنا لا يمكن الاقتصار على إعجاز التنزيل في القول بأنّه استعمل مختلف أدوات وأساليب البلاغة والبيان التي عرفها العرب، بل يجب – بالإضافة إلى ذلك – الإيمان بأنّ النبأ القرآني صادق وحقيقي، وأنّ التشريع في الرسالة واقعي وعالمي، وكلّ من يعمل في حياته للبرهان على صدقية التنزيل الحكيم في أنبائه وواقعيته في تشريعاته فهو من الصدّيقين. لقد كان يعنيني كثيراً صدق النبأ في النصّ القرآني، وواقعية التشريع في آيات الأحكام (أمّ الكتاب والتفصيلها) أكثر ممّا يعنيني جمال التركيب والصياغة فصدق النبأ الإلهي عندي أهمّ من تصديق المراجع كائناً من كان مؤلفها.

المبحث الثاني

خصائص البحث المفاهيمي للقرآن الكريم

يعتبر المفهوم القرآني النواة الأولى لفهم القرآن، والمنطلق الأساس لبناء الحضارة والعمران، ومنبع العلوم والمعارف على مر الأزمان، لهذا خُصَّ بالرعاية مذ تنزله، كما لحقته العناية بعد اكتمال نزوله. ولا غرو أن الأمة الآن تشهد حالة من التعثر والتبعثر، التعثر على مستوى استئناف السير الحضاري، والتبعثر على مستوى منهج التعامل مع النص القرآني، ولا سبيل إلى الخروج من هذه الحالة إلا من خلال الانطلاق من تدبر القرآن الكريم، بدء بمصطلحاته باعتبارها الخطوة الأولى لفهم الخطاب القرآني ومعرفة مقاصده، والمفاتيح الكاشفة عن مكنونه والمكتنزة لدلالاته الحضارية والمعرفية، فمن لم يتبين معناها أشكل عليه فهم الخطاب جملة.

ومن المعلوم أن للمفاهيم دور هام في تقدم الأمم أو انحطاطها باعتبارها الوعاء الذي يحوي ثقافتها وفكرها، فبمجرد استعارة مصطلح من ثقافة معينة أو من حقل معرفي آخر، ثم يتم تداوله على أساس التطابق والتماثل مع المصطلح الأصل، يبدأ الخلل يتسرب إلى النظام الفكري والثقافي للأمة، وإن بقي هذا الزيغان المفاهيمي مستمرًا سيتآكل جسدها إلى أن تنهار أصولها وثوابتها وأركانها التي قامت عليها، وبعد ذلك سننتقل من حالة تسرب المصطلح من ثقافة أخرى، إلى حالة ترسب مضمون ذلك المصطلح الوافد على ثقافة الأمة، ومن ثم تلحق مفاهيمها عدة أمراض من قبيل الميوعة والغموض والتشويه..

وقد عرف المصطلح القرآني تحولات مختلفة على مدى أربعة عشر قرنًا، حيث أُفرغ من محتواه القرآني وحمل دلالة تاريخية في كثير من الأحيان وصارت هي الموجهة للأمة بدل الدلالة القرآنية، وصارت المصطلحات والمفاهيم مقيدة ومؤطرة بما أنتجه التاريخ من تقنينات مدرسية ومذهبية، وغابت عنها الدلالة القرآنية التي تتسامى عن محددات الزمان والمكان والإنسان، الشيئ الذي نتج عنه تخلف في فهم الآيات القرآنية علمًا وعملاً.

ومن التعثرات الأخرى التي أصابت المفاهيم الإسلامية سيطرة المفاهيم الغربية على العقل المسلم، مما جعله يدخل في صراعات عقيمة منعته من مواصلة الإبداع والبناء المعرفي، مما أدى إلى تخلف على مستويات عدة انعكست نتائجها على المستوى الحضاري.

ولا سبيل إلى تصحيح الصورة والمسار إلا برد الاعتبار لكتاب الواحد القهار، وتحكيمه في الواقع، انطلاقا من الوعي بأنه مصدر كلي للمعرفة الكونية في أبعادها المختلفة، ولا يتأتى ذلك إلا بالبدء بتنقية المفاهيم – باعتبارها مفتاح الدخول إلى رحابه – وإزالة ما علق بها من أوهام الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ثم إعادة بنائها بناء قرآنيًا يتجاوز الترسبات التاريخية المحيطة بها من كل حدب، ومن ثم فهم القرآن حق الفهم وتدبره حق التدبر، لإعادة إحياء الأمة بالقرآن، باعتباره حبل الله المتين وهداه المستقيم، المتضمن لنبأ من قبلنا، وخبر ما بعدنا وحكم

بيننا، فمن تغافل عن المحددات والخصائص الموجود في آياته وسوَره وابتغى الهدى المعرفي والمنهاجي من خارج سُورِه، أضله الله، ومن تركه بالجملة قصمه الله [1].

وهذا البناء المعماري للمفاهيم من صميم عمليتي التدبر والتذكر، بالإضافة إلى اتسامه بالانضباط المنهجي، الذي لا يجعله يتوقف في الصياغة النظرية بل يتعداها إلى مرحلة التطبيق والتأويل في الواقع، فالمفهوم القرآني لا يدور فقط في إطار الدلالة اللفظية، بل يمتد ليشكل صياغة جوهر الوعي وتحقيق الحيوية الحضارية، التي تؤثر في البناء المعرفي وفي السياق الفكري والحضاري حسب الدلالة المودعة فيه.

الخصائص المنهجية والمعرفية في مقاربة المصطلحات القرآنية

إن طبيعة اللفظ القرآني تجعل الدارس له بين أمرين هامين: فأما الأول فهو الخطورة المنهجية في مقاربة مفرداته ونجومه، حيث يَفرض على مُستَنطِقه المنهج الذي من خلاله يلج إلى أبوابه لاستكناه أسراره، أما الأمر الثاني فهو الضرورة المعرفية، حيث تقتضي إعادة القرآن الكريم إلى مركزيته في تأسيس المعارف والعلوم، ومن ثم تحقيق شهود الأمة الحضاري، من خلال رؤيته الشمولية المحددة لمعالم ومنطلقات استخلاف الإنسان في هذا الكون.

وبطبيعة الحال فإن خصائص لسان القرآن تستدعي أولاً اكتشافها، ثم تفعيلها أثناء مقاربته لمصطلحاته وتثوير آياته، حتى تكون سياجا يحمي الدارسين من الخروج عن دائرة القرآن، أو أن يتعامل معها بمنهج لا يقبله القرآن.

(وهذه الخصائص تتنوع وتعدد بتعدد زوايا النظر، وتنوع المتدبرين، وهي غير قابلة للحصر؛ لأن القرآن مطلق، والإنسان نسبي، وليس من شأن النسبي أن يحيط بالمطلق، أو يحصر صفاته وخصائصه المطلقة، ولكل متدبر لآيات الكتاب الكريم نصيب، فكل متدبر يأخذ بالخصائص التي يقارب القرآن المجيد من زاوية النظر إليها).

الاستعانة بالله تعالى على فهم كلامة

إن المؤمن الذي يريد أن يرتقي في أشرف منازل الآخرة ، لا يستطيع أن يرتقي إلا بعد عون الله وتوفيقه له ، والمصلي كل يوم يقول في صلاته ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [2] .

ولكن كثيرا من الناس لا يفقه شيئا عن الاستعانة بالله ، وأنها ضرورية ومهمة في حياة المؤمن ولن يستطيع أن ينجز شيئا من أعماله الدينية أو الدنيوية إلا بعد توفيق الله وإعانته وتسهيله وتيسيره له .

وهناك الاستعانة بالوسائط الشريفة في تحقيق المراد من طلب القوة وقضاء الحوائج. وليس في ذلك بأس فقد استعان ابناء الانبياء والصحابة الكرام بالوسائط الشريفة في تحقيق المراد التي قد يتصور أنه لا يصح طلبها إلا من الله خاصة, كما في قول ابناء يعقوب (عليه السلام) لأبيهم : ﴿ قَالوا يَا أَبَانَا استَغفر لَنَا ذنوبَنَا إِنَّا كنَّا خَاطئينَ ﴾ [3] , وقول يعقوب (عليه السلام) لهم: ﴿ ...سَوَف أَستَغفر لَكم رَبّيَ إنَّه هوَ الغَفور الرَّحيم ﴾ مع أنه ورد قوله تعالى: ﴿ ...وَمَن يَغفر الذّنوبَ إلاّ الله... ﴾ [4],ولم يوجّه يعقوب (عليه السلام) ابناءه لطلب الاستغفار من الله مباشرة, وانما توسط بطلب الاستغفار لهم, وقرر هذا المعنى المولى سبحانه عند ذكره لهذه الحكاية ولم يعقّب عليها بشيء.

وأيضاً ندب المولى سبحانه الصحابة الى طلب التوسط بالنبي (ﷺ) لتحقيق مرادهم في الحصول على التوبة من الله ونيل رحمته, قال تعالى: ﴿ ...وَلَو أَنَّهم إذ ظَّلَموا أَنفسَهم جَآؤوكَ فاستَغفَروا اللهَ وَاستَغفَرَ لَهم الرَّسول لَوَجَدوا اللهَ تَوَّابًا

---

1 – جريدة الزمان , الخصائص المنهجية والمعرفية لمقاربة المصطلحات القرآنية, ص15.

2 – سورة الفاتحة :5.

3 – يوسف:97.

4 – سورة العمران:135.

رَّحيمًا ﴾[1], وهذه الآية يستفاد منها العموم لحالتي الحياة والموت, ولا يقتصر بها على حالة وجوده الشريف (ﷺ) بين ظهراني الصحابة, وذلك لورود الفعل (جآءوك) في سياق الشرط (لو) الذي يستفاد منه العموم.

وحسب هذه المشروعية في التوسط بالوسائط الشريفة في طلب المراد, يأتي قول المؤمنين (يا علي) في طلب القوة, وهو أفضل وأرجح مما لو طلب العبد لوحده من الله إمداده بالقوة فالاستعانة بالامام علي (عليه السلام) في المقام انما تعني في حقيقتها توجه دعاءين للمولى سبحانه في طلب القوة للشخص لا دعاء واحد, وهذا بلا شك أفضل وأحسن, وهو لا ينافي قوله تعالى: ﴿ ...وإيَّاكَ نَسْتَعين ﴾, وايضاً الحديث الذي يرويه ابن عباس عن النبي (ﷺ): (إذا استعنت فاستعن بالله).. لأنه ورد في القرآن الكريم الأمر بالأستعانة بغير الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعينوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاَة ... ﴾[2], وايضاً قوله سبحانه: ﴿ ...وَتَعَاوَنوا عَلَى البرّ وَالتَّقْوى ... ﴾ [3], وقد استعان الانبياء والأولياء بغير الله تعالى في مختلف حوائجهم, وإنما الذي ينافي الاستعانة المذكورة في الآية الشريفة والحديث الشريف إنما هو الاعتقاد باستقلال المستعان به عن ارادة الله وقدرته في قضاء الحوائج, أما مَن يستعين بشيء وهو يعتقد ان هذا الشيء هو مخلوق لله, وان ما يصدر من فائدة منه في المقام إنما هي فيض من فيوضات الله سبحانه, فلا تنافي ولا تعارض, والآيات الكريمة يجب أن نفهمها ضمن هذه المنظومة الشاملة لها, ولا يصح اجتزاء بعضها عن بعض, وقد قال تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرونَ القرآنَ وَلَو كَانَ من عند غَير الله لَوَجَدوا فيه اختلافاً كَثيرًا ﴾ (النساء:82).

ثم بعد ذلك اذا كان الاستعمال صحيحاً ولا غبار عليه عقيدةً, فلا بأس في دخوله في عمق التراث الشيعي الموغل على أمتداد القرون بحيث يصبح سليقة يوميةً ينشأ عليها الابناء ويتلفظ به عند جمهور الشيعة بصورة عفوية.

العيش في رحاب القرآن وهو الذي يهدي للتي هي أقوم

القرآن الكريم هو الثقل الأكبر الذي أمر النبي «ﷺ» الأمّة بالتّمسك به مع عترته من أهل بيته، وجعل التّمسك بهما جميعاً عاصماً من الضلالة، وذلك في حديثه المعروف بحديث الثقلين، وهو قوله «ﷺ»: «إنّي تارك فيكم الثقلين، فإن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[4] ، وهو كتاب هداية للنّاس إلى ما يصلحهم دنياً وآخره، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ... ﴾ 3، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة :2]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة :97].

وقال النبي الأكرم «ﷺ»: «اعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى»[5].

فالقرآن الكريم ليس بكتاب تاريخ، أو علوم، أو قصص، ولا غير ذلك، وما فيه مما يتعلق بالتاريخ أو ببقيّة العلوم الأخرى أو القصص فإن كل ذلك له علاقة بمسألة هداية القرآن الكريم للنّاس, وجعله النبي الأكرم «ﷺ» المخرج للمسلم في حال التبست عليه الأمور وحاره المخرج منها، فعن الإمام أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: خطب

---

1 – سورة النساء:64.
2 – سورة البقرة :45.
3 – سورة المائدة :2.
4 – الدهلوي , عبد العزيز, مختصر التحفة ,ص65.
5 – الريشهوري , محمد , ميزان الحكمة ,ج6,ص238.

رسول الله «ﷺ» فقال: «لا خير في العيش إلاّ لمستمع واع أو عالم ناطق. أيّها الناس إنكم في زمان هدنة، وإنّ السير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، فأعدّوا الجهاد لبعد المضمار، فقال المقداد يا نبي الله ما الهدنة؟ قال: بلاء وانقطاع، فإذا التبست الأمور عليكم كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن؛ فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار، وهو الدليل إلى خير سبيل، وهو الفصل ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم عميق، بحره لا تحصى عجائبه، ولا يشبع منه علماؤه، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم... من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن عمل به هدي إلى صراط مستقيم، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودالٌ على الحجة»[1].

ومع أنّ القرآن الكريم كتاب هداية للنّاس جميعاً، وبالخصوص المسلمين الذين يؤمنون بأنّ القرآن الكريم هو كلام الله وأنّه وحيٌ أوحاه سبحانه وتعالى لنبيّه الأكرم «ﷺ» إلاّ أننا نجد أنّ كثيراً من المسلمين هجروا القرآن، وتركوا العمل به ولم يتعاملوا معه على أنّه كتاب هداية لهم ولا أنّه المخرج من ملتبسات الأمور ومدلهمّاتها، فليس له أيُّ درو فاعل في حياتهم.

حيث أن القرآن الكريم مهجورٌ من قبل المسلمين على مستويين:

1-هجر التلاوة

فمن مظاهر هجر القرآن عند بعض المسلمين هو هجرهم له على مستوى التلاوة والقراءة، فتمر على الكثيرين منهم شهور لا يقرؤون آية واحدة من كتاب الله – إذا ما استثنينا ما يُقرأ أثناء الصلوات اليومية – فلا يفتح الواحد منهم المصحف الشريف ليقرأ فيه ولو شيئاً يسيراً من القرآن.

إنّ البعض يقتنون المصحف الشريف، ويضعونه في البيت والمكتب والسيارة لا بقصد القراءة، وإنّما للتحرّز أو للبركة فقط.. والحق أنّه ينبغي للمسلم أن يتعاهد كتاب الله بالقراءة، فيقرأ في اليوم والليلة ولو شيئاً يسيراً منه، قال تعالى: ﴿... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ...﴾ [سورة المزمل :73].

ولقراءة القرآن الكريم آثار جليلة وثواب وأجر كبير، فعن النبي الأكرم «ﷺ» قال: «من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كتب من الذّاكرين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كتب له قنطار من تبر، القنطار خمسة عشر ألف مثقال من ذهب، والمثقال أربعة وعشرون قيراطاً أصغرها مثل جبل أحد وأكبرها ما بين السماء إلى الأرض» [2].

وعن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن، ويذكر الله عزّ وجل فيه، تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيئ لأهل السماء كما تضيئ الكواكب لأهل الأرض، وإنّ البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن، ولا يذكر الله عزّ وجل فيه، تقل بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين»[3].

وعن النبي «ﷺ» أنّه قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

---

1 – المتقي الهندي ,كنز العمال ج2,ص289.

2 – الكليني , الكافي ,ج2,ص612.

3 – نفس المصدر ,ص610.

وعنه «ﷺ»: «عليك بقراءة القرآن، فإن قراءته كفارة للذنوب، وستر في النار، وأمان من العذاب»[2].

وعنه «ﷺ»: «إنّ هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: تلاوة القرآن».

وعنه «ﷺ»: «لا تغفل عن قراءة القرآن، فإنّ القرآن يحيي القلب، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي»[3].

2- هجر العمل بأحكام وتعاليم القرآن

ومن مظاهر هجر المسلمين للقرآن الكريم هو ترك العمل به، حيث تركوا العمل بالقوانين والتشريعات القرآنية، فسنّوا قوانين وضعيّة وضعوها بأنفسهم وجعلوها المقياس والأساس في الحكم بينهم وتركوا أحكام القرآن.. فمثلاً يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة :38]، وهذا الحكم لا يحكم به في جل بلاد المسلمين ويستبدلونه بحكم وضعي وهو السجن أو غير ذلك من الأحكام التي وضعوها بدلاً من هذا الحكم الإلهي.

وقال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ 15، وهذا الحكم الإلهي كسابقه لا يعمل به أيضاً، واستعيض عنه بحكم وضعي.. وقد شدد الحق سبحانه وتعالى في النّهي عن عدم الحكم بما أنزل، فقال: ﴿ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ 16، وقال أيضاً: ﴿ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ 17.

ومن مصاديق ترك العمل بالقرآن الكريم عدم الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه، فالقرآن يأمر بالصلاة والصوم والحج وبر الوالدين والإحسان إليهما وصلة الرحم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، ولكن هناك من المسلمين من لا يصلي، ومنهم لا يصوم ومنهم من يترك فريضة الحج مع الاستطاعة إليه، ومنهم من يعق والديه ومنهم من لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وكذلك ينهى القرآن عن الغيبة والنميمة والكذب والبهتان وشرب الخمر والزنا والكثير من النواهي، ومن المسلمين من يمارس ذلك ويفعله، فلا ينتهي عن نواهي الله تعالى التي نهى عنها عباده في كتابه المجيد.

إنّ من ينشد الهداية والصلاح والسعادة بما يخالف القرآن الكريم فلن يهتدي ولن يكون الصلاح حليفه ولا السعادة رائده، فالآية الكريمة التي تصدرنا بها الحديث تقول أنّ القرآن الكريم: ﴿ ... يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴾ 1، و «أقوم» صيغة تفضيل بمعنى الأكثر ثباتاً واستقامة واعتدالاً، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴾ 1 أنّ القرآن الكريم هو أفضل طريق للاستقامة والثبات على الهداية، فهو المنهج الأقوم في كل جوانب الحياة والوجود، وعلى كافة القضايا والأصعدة، في جانب العقيدة، ومن جهة القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، ومن ناحية التشريع العبادي والتعاليم الأخلاقيّة وغيرها، فتكون مخالفته في معارفه وأحكامه وتعاليمه ومفاهيمه وأخلاقه وآدابه وما جاء به خروجاً من طريق الهداية والاستقامة واتّجاهاً إلى سبيل الغواية والضلال.

---

[1] – الريشهوري, ميزان الحكمة ,ج7,ص244.

[2] – نفس المصدر , ص248.

[3] – نفس المصدر والصفحة.

المبحث الثالث

الثوابت والمتغيرات في المنهج العلمي

سبق أن ذكرنا أن تصورنا العام لبيئة المنهج العلمي الإسلامي سوف نستلهمه مباشرة من خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، وذلك انطلاقاً من الإيمان التام بأن الثوابت والمتغيرات الإسلامية يجب أن تكون هي الإطار الذي يحكم كل مناهج النظر في قضايا الوجود والفكر، والمعيار الذي يحدد ضوابط التطبيق الإنساني لتلك المناهج بما يحقق إرادة الله سبحانه وتعالى في إعمار الحياة على الأرض. فالإسلام يتميز عن كل ما عداه من الشرائع السماوية . أو الفلسفات والمذاهب الوضعية . بخاصية التوازن بين الثبات والتطور والجمع بينهما في تناسق مبدع، واضعاً كلاً منهما في موضعه الصحيح... الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى من أهداف وغايات وأصول وكليات، والمرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور من وسائل وأساليب وفروع وجزئيات. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد شرع المنهج الإسلامي للكينونة البشرية كلها، في جميع أزمانها وأطوارها، ليكون أصلاً ثابتاً تتطور هي في حدوده، وترتقي وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الإطار. وما ينطبق على المنهج الإلهي الذي أخبر الله به عباده ينسحب كذلك على الصنعة الإلهية في الكون كله، فحركة الحياة والفكر تستمر وتتسارع داخل إطار ثابت وحول محور ثابت. ومادة الكون في مجموعها ثابتة، وإن اتخذت أشكالاً مختلفة دائمة التغير والتطور. وجوهر الإنسان واحد، وإن تقدمت معارفه وتضاعفت إمكاناته، فهو يمر بأطوار شتى يرتقي فيها وينحط حسب اقترابه أو ابتعاده من جوهر إنسانيته.

إن الثوابت الإسلامية هي التي تضبط الحركة البشرية والتطورات الحيوية فلا ينفلت زمامها كما وقع لأوروبا عندما أفلتت من عروة العقيدة، كما أن الثوابت الإسلامية هي التي تصون الحياة البشرية، وتضمن مزية تناسقها مع النظام الكوني العام، وتحكم قوانين التطور فلا تتركها على إطلاقها[1].

وعندما نعرض الآن لبناء منهج علمي في ضوء هذا التصور الإسلامي، فإنه يتعين علينا قبل كل شيء أن نحدد الثوابت والمتغيرات الفكرية والعملية لهذا المنهج، ويكون من السهل بعد ذلك توصيف المناهج الفرعية للعلوم المختلفة في إطار النسق الإسلامي لبنية المنهج العلمي العام بأصوله وكلياته.

(أ) ثوابت فكرية إيمانية:

ونعني بها مجموعة المسلمات والقضايا الأساسية التي يتعين على الباحث أن يسلم بصحتها منذ البداية، وأن ينطلق منها في كل عمليات التفكير العلمي قبل شروعه في ممارسة البحث والتنقيب عن سر ظاهرة ما من الظواهر التي يعمد إلى دراستها. ومثل هذه المسلمات تعتبر . في رأينا . مقدمة ضرورية في بنية النسق الإسلامي لمناهج البحث العلمي، وذلك لفائدتها العظمى في تهيئة الباحث الجيد، وتزويده بمبادىء بسيطة أو مركبة، تساعده على تكوين النظرة الكلية الشاملة، ولا تؤدي أبداً إلى تناقض مهما بلغت مسيرة العلم وإنجازات التقنية ويمكن إجمال هذه الثوابت فيما يلي:

1. التوحيد الإسلامي:

التوحيد [2]هو أول الثوابت الإسلامية ومصدر باقي المسلمات الفكرية والإيمانية، طالبنا الحق سبحانه وتعالى به في أول ما نزل من آيات القرآن الكريم، ليكون بمثابة نقطة الانطلاق وحجر الزاوية في بناء أي نسق علمي سليم يوجه

---

[1] – د. يوسف القرضاوي , الخصائص العامة للإسلام ,ص45.

[2]– سيد قطب, خصائص التصور الاسلامي,ص66.

رؤية الإنسان الصائبة لحقائق الحياة والفكر والوجود، ويساعده على فهم وقراءة كلمات الله القرآنية في كتابه المسطور، وكلماته الكونية في كتابه المنظور.

قال تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [سورة العلق: 1].

وقال سبحانه: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس: 82].

وعقيدة التوحيد الإسلامي هي التي تحفظ كرامة الإنسان وتكريمه بإخضاعه للخالق الواحد جل وعلا، وتحرره من سلطان العقائد الوثنية أو المذاهب الوضعية.

فالله سبحانه وتعالى هو الحق المطلق، وهو مصدر كل الحقائق المعرفية الجزئية التي أمرنا بالبحث عنها واستقرائها في وحدة النظام بين الظواهر الطبيعية والإنسانية، باعتبارها مصدراً للثقة، وليست ظلالاً أو أشباحاً أو مصدر للمعرفة الظنية كما نظرت إليها الثقافة اليونانية.

وفي ظل عقيدة التوحيد الإسلامي تتحقق أسلمة العلوم ومناهجها وتقنياتها بمعناها الصحيح، ويصبح المفهوم الإسلامي للعلم أوسع وأشمل من المفهوم الشائع لدى فلاسفة العلم على اختلاف مذاهبهم. فهناك العلم الظاهر في عالم الشهادة، والعلم الغيبي الذي أخبرنا الله به في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه الأمين عليه الصلاة والسلام.

ويكون العلم الظاهر دنيوياً بعلاقاته مع الأشياء، وتعبدياً في نفس الوقت لصلته بالله الواحد.

ومن كانت عقيدته الدينية هي (التوحيد) يجد في نفسه دافعاً أقوى مما يجد سواء نحو أن يبحث دائماً عن الوحدة التي تؤلف بين الكثرة أياً كان الموضوع، فيبحث عن محور الوحدانية في الشخصية الإنسانية برغم اختلاف الجوانب الكثيرة في حياة الفرد الواحد، واختلاف العلوم الباحثة في تلك الجوانب. وكذلك يبحث عن محور الوحدانية في الكون بأجمعه مجتمعاً في وجود واحد.

ومن لطائف العلم التي نشير هنا إليها ما نلاحظه من تشابه بين نواميس القوى الطبيعية الناتجة عن خصائص المادة الجوهرية، على نحو ما يبدو من قوانين الجذب الكهربي والجذب التثاقلي على سبيل المثال. وقد شرع العلماء حديثاً في البحث عن الصيغة العلمية (الرياضية) التي توحد بين مختلف أنواع القوى الموجودة في الطبيعة، وأحرزت جهودهم نجاحاً كبيراً على هذا الطريق(1).

ومن الصفات الجديدة للمعرفة العلمية المعاصرة أن الحواجز الظاهرية بين فروع العلم المختلفة أخذت تذوب تدريجياً لكي تحل العلوم المتداخلة والمتكاملة محل العلوم المتعددة والمنفصلة، ويتوقع فلاسفة العلم والمؤرخون له أن العلوم كلها يمكن أن تندرج في بناء نسقي واحد بحيث يكون ترتيبها في ذلك النسق المتكامل ترتيباً قائماً على وضع ما هو خاص من قوانين ومبادىء وفروض تحت ماهر أعم منه. ولقد توقع هيزنبرج هذه النتيجة للعلوم المعاصرة عندما ذكر في محاضرة ألقاها بجامعة لايبزج عام 1941 أن (الفروع المختلفة للعلم قد بدأت في الانصهار في وحدة كبيرة)(2) . وحول فكرة (العلم الموحد) هذه يقول رودلف كارناب: (لا وجود لمصادر متعددة للمعرفة، بل هناك علم واحد فقط. فجميع المعارف تجد لها مكاناً في هذا العلم. والمعرفة في حقيقتها ذات نوع واحد فقط، وما المظهر الخارجي للخلافات الأساسية بين العلوم إلا نتيجة مضللة لاستخدامنا لغات فرعية للتعبير عن هذه العلوم)

والباحث المؤمن هو الذي يفهم شهادة التوحيد في إطاره الشامل الذي يجمع بين وحدة النظام في بناء الذرة وبناء المجموعة الشمسية، وبين وحدة الطاقة بردها إلى أصل واحد وإن تعددت صورها، وبين وحدة الحركة في طواف

---

1 – نجح العلماء الثلاثة عبد السلام – ويتبرج – جلاشو نجاحاً جزئياً في التوحيد .... .

2 – فينر هايزنبرج , المشاكل الفلسفية ,ص20.

بردها إلى أصل واحد وإن تعددت صورها، وبين وحدة الحركة في طواف الإلكترونات حول النواة، وطواف الكواكب حول الشمس، وطواف المسلمين حول الكعبة المشرفة.

إن تأكيد كل هذه المعاني في فكر الباحث العلمي ووجدانه يعتبر من أهم مقومات الشخصية العلمية التي يبدع العلماء على أساسها في اطمئنان وهدوء ونقاء.

وهنا يتحقق الانسجام الكامل بين الفكر والعمل، بعيداً عن غيوم المذاهب الفلسفية الرديئة التي تشوه الوجه الناصع لكل حقيقة.

2. النظام الكوني:

إن الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى يستلزم بالضرورة العقلية أن يرد الإنسان كل شيء في هذا الكون إلى الخالق الحكيم الذي أوجد هذا العالم بإرادته المباشرة المطلقة، وخلقه على أعلى درجة من الترتيب والنظام والجمال، وأخضعه لقوانين معينة ثابتة لا يحيد عنها، وحفظ تناسقه وتوازنه في ترابط محكم بين عوالم الكائنات، وتنسيق معجز بين آحادها ومجموعاتها، وجعل بناءه آية في الروعة والكمال، ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب ولا خلل.

قال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى فيخلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ [سورة الملك: 1 . 4].

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في مواضع مختلفة، ونبه العباد إلى الحكمة السامية وراء التناسق والإبداع في خلق هذا الكون. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ [سورة السجدة: 7]

وقوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[سورة القمر: 49].

وقد شاءت إرادته تعالى أن تبين لنا من خلال نظام الكون ووحدته استمرارية المواد كأشياء، وتكرر الحوادث والظاهرات كعلاقات سببية لنراقبها وندركها وننتفع بها في حياتنا الواقعية، بعد أن نقف على حقيقة سلوكها ونستدل بها على قدرته ووحدانيته. قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[سورة فصلت: 53].

وقال سبحانه: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [الفتح: 23].

وفي إطار المفهوم الإيماني لمسلمة النظام الكوني واطراد الظاهرات الطبيعية كعلاقات علية يتمتع الباحث المسلم بالاطمئنان والثقة اللازمين لمواصلة البحث العلمي، إيماناً منه في ضمان بلوغ تعميقات أو قوانين علمية من مجموعة محددة من الوقائع، وهذا لا يتوفر مثلاً لباحث آخر ينطلق في تفكيره من مبدأ (الحتمية) الذي يفترض أن صدق أحداث الكون مستقل عن الزمان والمكان. وعندما ينتقل العلم إلى مرحلة جديدة تتميز باللاحتمية أو عدم اليقين، يتعين على هذا الباحث أن يتخلى عن إيمانه بمبدأ الحتمية المطلقة ويبحث عن مبدأ جديد، لكن التصور الإسلامي للنظام الكوني ينقذ العلماء من التخبط في التيه بلا دليل، كالإحالة على الطبيعة أو العقل أو المصادفة أو ما إلى ذلك.

كما أن هذا التصور الإيماني يجعل الطريق مفتوحاً دائماً أمام تجدد المنهج العلمي وتطوره بما يتناسب مع حالة العلم في المرحلة التي يبلغها من تطوره.

وهنا أيضاً تظل العلاقة بين إرادة الله واطراد القانون الطبيعي واضحة جلية، لما تفسحه من مكان لتفسير حدوث الخوارق والمعجزات التي يظهرها الله بين الحين والحين، تذكيراً للإنسان بأن الله سبحانه وتعالى هو مصدر الوجود، وأن كل ما في الكون من قوانين مستمد فمن إرادته ومتوقف عليها.

وإذا اختل نظام السنن الكونية الثابتة، فإن هذا في كتاب الإسلام يعني اقتراب قيام الساعة، ويؤذن بانتهاء الحياة على الأرض[1].

3. فريضة البحث العلمي:

كثيرة هي النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على طلب العلم والبحث العلمي بأسلوب منهجي سليم، ويصعب في هذا الحيز استقصاء الآيات التي دعت إلى البحث في مخلوقات الله تعالى الكونية والطبيعية، لكن الباحث المسلم يجب أن يكون على دراسة كاملة بكل التعاليم الإسلامية التي تجعل من مهمته فرضاً كفائياً. وعندما يطلب المسلم علماً على النهج الإسلامي يكون فهمه للحياة والكون طريقاً للوصول إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [سورة آل عمران: 191].وتكون وجهته دائماً لعمل الخير انطلاقاً من القاعدة العامة في ضرورة الربط بين النظرية والتطبيق: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تعلمون ﴾ [سورة الصف: 2 . 3].ويكون تصوره لقيمة العلم النافع أعم وأشمل، فهي تتعدى حدود العمر والفضل والمصدر. وكل علم يحتاجه المسلمون فرض كفاية، فإن لم يوجد بينهم من يحسنه فالكل آثمون، وليست الكفاية أن يوجد من يعرفه، بل في وجود المجموعة التي تغطي احتياجات الأمة. والتخصصات العلمية المختلفة ضرورية لكل مجتمع، والإخلال بأحدها يؤدي إلى الإخلال بالواجب الأعظم، وهو عبادة الله حق عبادته، وإعلاء كلمته في الأرض.

وقد أدت الأخطاء البشرية في تناول مناهج المعرفة إلى تدنيس الفطرة الحنيفة المؤمنة بالله، وظهرت العلمانية في العالم الغربي لتضع حداً فاصلاً بين العلم والدين، وكان من نتائج هذا الفصل أن فقدت العلوم أساسها الأخلاقي، وظهرت المذاهب الوضعية لتكون بمثابة دين اجتماعي للمجتمعات التي تعتنقها، ولهذا: فإن البحث العلمي السليم لا يمكن أن يحقق غايته الإيمانية إلا إذا استعاد علاقته الأولى بمبادىء الإسلام، وعندئذٍ سكون التفكير العلمي لدى البشر قد استعاد طبيعته الحقة، بوصفه بحثاً موضوعياً عن الحقيقة أينما وجدت [2].

من ناحية أخرى: عندما يمارس الباحث المؤمن عمله العلمي باعتباره فريضة إسلامية، فإنه يكون على دراية تامة بما تدعو إليه تعاليم الإسلام من محاربة التنجيم والتنبؤ العشوائي والتعصب للعرف والعرق، وبتخذيرها من الاطمئنان إلى كل ما هو شائع أو موروث من آراء ونظريات، وهنا لن يجد الباحث المسلم أي عناء في إدراك أن هذه التعاليم الإسلامية التي تحارب كل معوقات البحث العلمي تعتبر أوسع وأشمل مما يعرف بأوهام الكهف والسوق والمسرح لبيكون، والتي كثيراً ما يباهي بها ويروج لها فلاسفة العلم وشراح المنهج العلمي [3].

---

[1] – مثال قوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾. [القيامة : 7–9] .

[2] – د. إبراهيم عبد الحميد الصياد , المدخل الإسلامي للطلب ,ص75.

[3] – عباس العقاد , التفكير فريضة اسلامية.,ص12.

4. نسبية المعرفة العلمية:

تتميز المعرفة العلمية بأن تحصيلها يتم نتيجة نشاط إنساني مقصود، يهدف الباحث من ورائه إلى دراسة ظواهر معينة يعكف عليها ويتناولها بالملاحظة الدقيقة وبالتحليل، مستخدماً في ذلك منهجاً يتفق وطبيعة موضوع البحث، بغرض التوصل إلى قوانين عامة تفسر اطراد الظواهر المعنية تمهيداً للاستفادة منها.

والمعرفة العلمية بهذا المعنى تمثل الشق المادي لمفهوم العلم الشامل في الإسلام.

ومن هنا فإن الحقائق المعبرة عن السلوك الفعلي لظواهر الكون والحياة تظل مستورة في الشق غر المكتشف من العلم حتى يأذن الله بكشفها تدريجياً على أيدي من يشاء من عباده، وإنها لمجلية حتماً في يوم معلوم مهما تعرضت من خلال البحث عنها لمختلف ضروب التشعيب والتحيز المقصود وغير المقصود وذلك مصداقاً للوعد الإلهي في قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[سورة فصلت: 53].

ولما كانت طبيعة المعرفة العلمية تتطلب إجراء البحث والدراسات المكثفة على أجزاء محدودة جداً من الكون وظواهره، وبمعزل عن بعضها البعض، دون إلمام بكافة الجوانب المتصلة بموضوع البحث والمؤثرة عليه، فإن إدراك الحقيقة الكاملة المطلقة يظل دائماً هدفاً أسمى يسعى إليه العلماء من خلال عملية الحقيقة الكاملة المطلقة يظل دائماً هدفاً أسمى يسعى إليه العلماء من خلال عملية تصحيح مستمرة لمسيرة العلم، تتم بتكافل جهودهم وتنافسهم في السبق إلى كشوف علمية جديدة وإلقاء الضوء على حقائق جزئية في الواقع الكوني الثابت.

وقد أثبتت حركة التاريخ العلمي أن الكون يزداد مع التطور المعرفي اتساعاً وعمقاً، وأن العلم الذي نحصله ما هو إلا تصورنا عن حقائق الكون، وليس هو الكون ذاته، ومن ثم فهو ليس مستقلاً عن ذاتية الإنسان، وليس نهائياً في أية مرحلة من مراحل تطوره. وما أبلغ تشبيهات العلماء لجوانب من طبيعة العلاقة المتبادلة بين الباحث وموضوع بحثه. فقد كتب كلود برنار يقول: إن ابتعاد المعرفة عن الباحث في اللحظة التي يظن أنه قد قبض على زمامها، هو في الوقت نفسه سر عذابه وسعادته.

وكتب ماكس بلانك يقول: إن الباحث يستمد الرضا والسعادة من النجاح الذي يصاحب البحث عن الحقيقة، لا في امتلاك ناصيتها.

ويقول العالم الفيزيائي ألبرت أينشتين: الفيزياء هي محاولة للقبض على ناصية الحقيقة كما هي في الفكر دون نظر إلى كونها موضوع مراقبة [1].

على أننا ننطلق في مفهومنا لنسبية المعرف العلمية ومستويات موضوعيتها أو حقائقها الجزئية مما تشير إليه بعض معاني الآيات القرآنية الكريمة في مثل قوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء: 85].

وقوله: ﴿وقل رب زدني علماً ﴾ [طه: 114].

وقوله: ﴿وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [يوسف: 76].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن الناس يبالغون كثيراً في تصورهم لمعنى الحقيقة العلمية أو الموضوعية العلمية، إلى درجة أنهم يخطئون أحياناً فيما يظنون أنه قوانين فيزيائية معبرة عن السلوك الفعلي للمادة، وهي حقيقة الأمر قوانين لا سيطرة لنا عليها، لأنها أوامر الله المنظمة لحركة الكون فالصيغ والنتائج التي يتوصل إليها العلماء وفق مناهج تقوم على خبرتهم الذاتية، ويعتقدون أنها قوانين فيزيائية موضوعية، لا تكون بالطبع تعبيراً كاملاً عن

[1] – أينشتين ,رينيه ديبو , مؤسسة المعرفة,ص17.

حقيقة السنن الكونية، وربما لا تمت إليها في بعض الأحيان بأية صلة، حتى وإن كانت تبدو لهم خاضعة للعالم الخارجي ومستمدة من وقائعه ولا علاقة لها بأمور ذاتية.

فعلى سبيل المثال: اعتقد أرسطو أنه قد اكتشف أحد قوانين الطبيعة عندما قال: بأن الأجسام الثقيلة تسقط إلى الأرض أسرع من الأجسام الخفيفة، وكان ذلك بناء على منهج فلسفي يخصه ويستند إلى القياس النظري المجرد، مع أن مثل هذا القانون لا وجود له في عالم الواقع على الإطلاق، ولا يمثل حقيقة ما من حقائق الوجود.

وكل ما في الأمر: أنه استنتاج مضلل من موضوعية زائفة فغي جوهرها، لأنها انخدعت بما يدركه الحس القاصر، واستندت إلى تأملات العقل الخالص، وارتبطت في الاستدلال عليها بمنهج سلبي عقيم.

أما القانون الطبيعي الذي ينطبق على هذا الموقف فقد سعى إليه علماء الحضارة الإسلامية بعد أن دعتهم تعاليم الإسلام إلى المنهج العلمي السليم، ورفضوا قبول البراهين الفلسفية للآراء التي يمكن اختبارها تجريبياً، واهتدوا إلى تحديد الكثير من المفاهيم العلمية المتعلقة بوصف حركة الأجسام وأنواعها حسب حالة العلم في عصرهم [(1)].

وفي عصر النهضة الأوروبية استطاع جاليليو أن يستخدم ما توفر لديه من أجهزة لقياس الزمن في أن يثبت بالتجربة أن جميع الأجسام الساقطة ذاتياً تتسارع بعجلة ثابتة قيمتها 9.8 متراً لكل ثانية مربعة، وهي من الثوابت الفيزيائية التي لا تنطوي على علاقات علية.

إلا أن هذا بدوره لم يكن قانوناً عاماً وكاملاً، فقياسات جاليليو لم تكن بالغة الدقة بحيث تكشف أن نفس الجسم يتسارع بدرجات مختلفة تحت تأثير الجاذبية في أماكن مختلفة على الأرض.

كما أن هناك أنواعاً كثير للحركة يعتبر السقوط الحر للأجسام جزءاً منها.

والأجسام التي نراها الآن في سفن الفضاء جاليليو يملك الوسيلة لمعرفة ذلك، أو لنقل إن المنهج العلمي الذي اتبعه كان عاجزاً عن تحقيق المعرفة الكاملة. فجاءت الحقيقة العلمية على يديه جزئية ومحدودة بحدود العجز والقصور في العناصر والوسائل التي اعتمد عليها منهجه التجريبي، وهي في جوهرها من متغيرات المنهج العلمي المتجددة والمتطورة مع تقدم العلم وتطور التقنية، كما سنذكر فيما بعد، وهكذا يجد الإنسان دائماً أن ما يصل إليه من علم في أي عصر ليس هو القانون النهائي، ولكنه مرحلة معرفية أرقى من سابقتها وأدنى من لا حقتها في سلم الترقي المعرفي اللانهائي.

ولعل إدراج التصور الإسلامي لنسبية المعرفة العلمية وموضوعيتها وحقيقتها ضمن مسلمات المنهج العلمي الإسلامي الذي يساعد على تصحيح الاستخدام الإنساني الخاطىء للعلم ونظريته من الناحيتين الفلسفية والتقنية، خصوصاً بعد أن بالغ أصحاب النزعة العلمية والتقنية المتطرفة في تقديسه وتأليهه بأكثر مما بالغ أنصار (الحتمية) وأصحاب الفلسفات العلمية الحديثة.

(ب) متغيرات معرفية منهجية:

ونعني بها مجموعة العناصر والخطوات البنائية في نسق المنهج العلمي الإسلامي، والتي تتميز بارتباطها الوثيق بثوابت المنهج ومسلماته من جهة وبإمكانية تغيرها أو تطورها أو تحورها كما وكيفاً وترتيباً، لتفي بمتطلبات اطراد التقدم العلمي والتقني من جهة أخرى. ويمكن إجمال هذه المتغيرات فيما يلي:

1. وسائل البحث العلمي:

لقد رفع الإسلام من شأن العلم باعتباره أساساً لفهم العلاقة السليمة بين الله والكون والإنسان.

---

[1] – د. أحمد فؤاد باشا, التراث العلمي للحضارة الاسلامية,ص13.

والقرآن الكريم لا يكاد يدع موطناً في الكون دون أن يطوف بالإنسان خلاله، ويستثير فيه النظرة المتأملة المتقصية، ويلفت أصحاب العقول الراجحة، وذوي القلوب المؤمنة، إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون واستقراء لغته وإشاراته، باعتباره كتاب معرفة للإنسان المؤمن الموصول بالله وبما تبدعه يد الله، وقراءة الآيات المنبثة في جنبات الكون وظواهره تتم بالاستخدام الأمثل لملكات الإدراك والعلم التي وهبها الله للإنسان لتلمس الحقائق الكونية بالاختبار والرصد والتجريب والقياس والاستدلال، مستعيناً في ذلك بحواسه، والعقل من الحواس، أو ما يعززها ويعمقها من أجهزة وأدوات، تبدأ منها وتعود إليها.

وقد أشار القرآن إلى حواس الإنسان وملكاته المعرفية في أماكن متفرقة، فذكر (الذوق) في قواه تعالى: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ﴾ [الأعراف, الاية: 22].

وأشار على اللمس في قوله تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[الأنعام: 7].

وأشار إلى حاسة الشم في قوله تعالى: ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون [يوسف: 94].

وذكر السمع والبصر والفؤاد (أي: القلب) في مثل قوله تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل: 78].

وقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج: 46].

وقوله: ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ [الروم: 59].

وقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[محمد: 24].

وقد فطن علماء المسلمين الأوائل إلى حقيقة الدعوة القرآنية إلى القراءة والعلم وإمعان النظر والفكر في ملكوت السماوات والأرض سعياً إلى الهداية واليقين.

فهذا أبو عبد الله القزويني يوصي في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات): بإعادة النظر في ظواهر الكون، والبحث عن حكمتها وتصاريفها، لتظهر لنا حقائقها وتنفتح لنا عين البصيرة، ونزداد من الله هداية ويقيناً، فليس المراد بالنظر تقليب الحدقة نحو السماء فإن البهائم تشارك الإنسان فيه، ومن لم ير من السماء إلا زرقتها، ومن الأرض إلا غبرتها، فهو مشارك للبهائم في ذلك، وأدنى حالاً منها وأشد غفلة[1]، كما قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[الأعراف: 179].

بهذه الروح الإيمانية الخلاقة أحسن المسلمون الأوائل استخدام وسائل المعرفة والبحث العلمي، واندفعوا في مطلع عصر الرسالة الإسلامية إلى الأخذ بمنهج النظر والبحث العميقين في مختلف مجالات العلوم، وقدموا للحضارة الحديثة رصيداً هائلاً من كتب وأبحاث واكتشافات وتقنيات، لولاها لتأخر سير المدنية عدة قرون.

ومن التقدم العلمي والتقني لم تتغير وسائل البحث العلمي في ذاتها، ولكن تطورت الأجهزة التي تعزز أداءها. فعندما اقتحم العلم عالم الذرة والنواة والخلية الحية، وعندما غزا أعماق الفضاء الخارجي لاكتشاف المزيد من الكواكب والنجوم والمجرات، وانتقل من عالم المقاييس البشرية العادية إلى عالم المتناهيات في الصغر والكبر، لم

[1] – القزويني , محمد بن زكريا , عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات,ص 77.

تعد العين المجردة وبقية الحواس قادرة على مواصلة القراءة والبحث في المخلوقات الدقيقة أو البعيدة، وكان اختراع المقاريب والمجاهر البصرية والالكترونية تعزيزاً لحاسة الإبصار، مثلما كانت سماعة الطبيب تعزيزاً لحاسة السمع، وكانت الترمومترات الحرارية تعميقاً لحاسة اللمس، وكان الحاسب الآلي مساعداً للعقل في إجراء العمليات الحسابية والتخطيطية المعقدة.

ويستمر تطور الأجهزة العلمية مواكباً لتطور العلم ومرتبطاً في نفس الوقت بأصولها الثابتة كما خلقها الله في الإنسان.

وتكمن عظمة المنهج العلمي الإسلامي في أنه تجريبي عقلي في آن واحد، ويعتبر الإنسان بكامله، بحواسه وعقله وإرادته وبصيرته وحدسه، هو الوسيلة الأولى والأخيرة لتحصيل المعرفة العلمية، والأجهزة التي يستخدمها ويطورها لتعزيز قدراته وإمكاناته هي في نفس الوقت من صنع ملكاته، وبهذا يبطل أي اقتصار مصطنع على إحدى وسائل المعرفة، مثلما يفعل العقليون والحسيون (أو التجريبيون) وأصحاب النزعة النقدية والنزعة الاجتماعية وغيرهم.

2. خطوات البحث العلمي:

يجمع فلاسفة العلم وعلماء المناهج على أن الخطوات الرئيسية في المنهج العلمي هي الملاحظة والتجربة والفرض العلمي، لكنهم يختلفون حول أهمية كل منها من حيث الفاعلية والترتيب في النسق البنائي المنهجي العام.

والتأصيل الإسلامي لهذه الخطوات يؤكد سبق علماء الحضارة الإسلامية إلى اتباع المنهج التجريبي بما يتفق وحالة المعرفة العلمية في المرحلة التي وصلتها في عصرهم.

فقد كشفت قراءتنا لعلوم التراث الإسلامي عن ممارسات علماء الحضارة الإسلامية لمستويات مختلفة من الملاحظة والتجربة والحدس العقلي، مع إدراكهم لطبيعة العلاقة بينها، والشروط العلمية اللازمة لممارستها، والضوابط المنهجية المؤدية إلى استقراء النتائج العلمية على أساسها.

أما الفرض العلمي في تراث الحضارة الإسلامية فقد كان أولياً في أغلب الأحيان، ولم يصل إلى مرتبة التعميم أو التجريد في صيغة قانون شامل أو نظرية عامة، ذلك لأن طبيعة علوم التراث الإسلامي يغلب عليها الجانب الوصفي أكثر من التعبير الكمي الذي يميز العلم عادة في مرحلة متقدمة من تطوره، كما في علوم الفيزياء والكيمياء الحديثة والمعاصرة. لكن الاستدلال التحليلي، من ناحية أخرى، يؤكد ثراء الفكر العلمي الإسلامي بأهم مقومات الفرض العلمي، متمثلة في إضفاء مقولات العقل على نتائج الملاحظة والتجربة، واستخدام الخيال العلمي في المماثلة بين الظواهر المختلفة، والكشف عن الوحدة التي تربط بين وقائع متناثرة، وابتكار المفاهيم العلمية المطابقة للواقع والخبرة.

وقد ظلت الملاحظة والتجربة والفرض العلمي . وسوف تظل . أساساً لممارسة البحث العلمي في ذاتها، وقابلة لمواكبة التقدم العلمي والتقني بتطوير أدائها والطرق المستخدمة في إجرائها.

وسوف يظل المنهج الإسلامي . بشهادة المنصفين من مؤرخي العلم والحضارة . هو الينبوع الأول لحضارة العلم الطبيعي.

3. العلوم المستحدثة والمتولدة:

من يتتبع تطور مناهج البحث العلمي عبر العصور، لن يجد صعوبة في الوقوف على نقاط ضعفها، وأوجه العجز فيها.

ذلك أنها جميعها مناهج مؤقتة ومحدودة بحدود النظرة الفلسفية الضيقة لأصحابها ومنظريها.

ولهذا: جاء القياس الصوري عقيماً، والبناء الاستنباطي متداعياً، والنسق البيكوني هزيلاً ومنقوصاً، حتى المنهج الفرضي الاستنباطي المعاصر أصبح هو الآخر معرضاً للتصدع.

كل ذلك بسبب التقدم المستمر للعلم، واستحداث علوم جديدة ومتولدة لا يجدي معها أي من قوائم المناهج التقليدية المطروحة.

أما المنهج العلمي الإسلامي . بثوابته ومتغيراته . فيترك المجال مفتوحاً لأي علم جديد يحدد الباحثون فيه منهجهم من واقع ممارستهم الفعلية لعملية البحث العلمي بدقائقها وتفاصيلها.

فبعض هذه العلوم على سبيل المثال وهو علم (السيبرنطيقاً) يحتاج إلى فريق من علماء ذوي تخصصات مختلفة، لأنه يقوم على علوم كثيرة مثل الرياضيات والمنطق والميكانيكا والفسيولوجيا وغيرها.

وظهرت كذلك علوم ثنائية وثلاثية ومركبة مثل علوم الفيزياء الفلكية والهندسة الطبية والحاسبات الآلية والمعلوماتية والبيئة وغيرها.

4. تصنيف مناهج البحث الفرعية:

لقد أصبح واضحاً من واقع البحث العلمي ومشكلاته أن تقسيم مناهج البحث في العلوم لا ينحصر في أنواعها الرئيسية: الاستنباطي، والاستقرائي، والفرض الاستنباطي، والاستردادي، ولكنه يتعداها إلى مناهج خاصة تستخدم مسائل جزئية تختلف من علم إلى علم، بل وتختلف في داخل فروع العلم الواحد. وهذا يتطلب عملية تصنيف مستمرة لأنواع المناهج الفرعية في إطار منهج علمي عام، يشدها إلى ثوابته ومسلماته، ويحتويها بمرونته ومتغيراته.

النتيجة

من خلال بحثنا توصلنا أن المناهج البحث العلمي العديد من الخصائص التي من شأنها أن تميزها عن غيرها من خطوات كتابة البحث العلمي، وتتمثل خصائص مناهج البحث العلمي في التالي:

1- إن المنهج العلمي يعتبر من أفضل الأدوات التي يستخدمها الإنسان؛ ليوسع من آفاق معرفته ويزيد من المعلومات المختبرة والموثوق بها، وهو طريق الباحث للوصول إلى المعارف والحقائق، و وسيلته للتحقق من مدى ثبات وصدق صحة هذه المعارف والحقائق.

2-إن المنهج العلمي يرفض الاعتماد الكلي على العادات والتقاليد، وحكمة السابقين وتفسيراتهم، وآراء أصحاب السلطة من أي نوع، والخبرة الشخصية؛ في سبيل الوصول الى الحقيقة، ويفرض على الباحث المطبق له الفحص الدقيق، والتقصي المنظم، والملاحظة الموضوعية النزيهة، والتفكير المنطقي السليم، ومن الخطأ في ضوء مقتضيات المنهج العلمي أن نعتقد بأن كل ما جرت عليه العاده صحيح، أو أنه من الممكن دائماً الوصول إلى الحقيقة بالرجوع إلى ما تراكم من حكمة العصور السابقة.

3- بالرغم من أن الحقائق التي نصل إليها عن طريق المنهج العلمي قابلة للتغير؛ وذلك بفعل ظهور عوامل جديدة ؛ فإن المنهج العلمي الذي يتبع كطريقة للحصول على تلك الحقائق لا يتغير تبعاً لتغير الحقائق نفسها، وهذا لا ينافي أن المنهج العلمي قابل للتطوير والتعديل اذا ما ثبت عدم صلاحيته أوجد ما يستدعي تطوير وتعديل.

4- ومن خصائص المنهج العلمي أنه يستند إلى ظواهر وحقائق يمكن لكل شخص مدرب أن يلاحظها في كل زمان ومكان، ويستلزم تطبيق المنهج العلمي بأن ينتقل الباحث من الأشياء إلى المعاني، وأن يلاحظ جميع الظواهر التي يدرسها حتى الاجتماعيه منها على أنها أشياء، ولا يجوز له أن يصل إلى معرفة الأشياء عن طريق الآراء الشائعة.

5- يتميز أيضاً بتحرره من التحيز العاطفي، أي بموضوعيته، وبإلتجاءه إلى الفروض وإلى القياس الكمي الدقيق، وإلى التصنيف والتحليل؛ حتى يصبح الفرض قانوناً بعد التحقق من صدقه عن طريق إعادة الملاحظات والتجارب.

6- من خصائص المنهج العلمي أيضاً أنه يجمع بين الاستنباط والاستقراء، وبالتالي بين الفكر والملاحظة، وعندما يستخدم الإنسان المنهج العلمي؛ فإنه يتحرك بين الاستنباط والاستقراء، و ينهمك في ما يعرف بالتفكير التأملي.

7- ويمتاز المنهج العلمي أيضاً بالمرونة والقابلية للتعدد والتنوع؛ لتعدد وتنوع العلوم والمشاكل، وقد يكون من المستحيل وضع مجموعة جامدة من القواعد المنطقية؛ ليتبعها الباحث من في مجالات العلوم الطبيعة، والآثار، والرياضيات، وعلم النفس، والاجتماع، والتربية، والتاريخ. إن العلوم تختلف عن بعضها البعض؛ وبالتالي تتعدد المناهج العلمية.

المصادر

1-القرآن الكريم
2- أحمد , فؤاد الباشا, فلسفة العلوم الطبيعية في التراث الاسلامي ,دار الفكر العربي .
3- جريدة الزمان, الخصائص المنهجية والمعرفية لمقاربة المصطلحات القرآنية,تركيا ,2021.
4- الدهلوي , عبد العزيز , مختصر التحفة الاثنى عشرية , مكتبة الامام البخاري .
5- الريشهوري , محمد , ميزان الحكمة , دار الحديث , 1422.
6- المتقي الهندي , كنز العمال, دارالكتب العلمية, بيروت.
7- الكليني ,محمد بن يعقوب ,الوافي , مركز بحوث دار الحديث.
8- د. إبراهيم عبد الحميد ,العباد, المدخل الاسلامي دار الحكمة بيروت ,.
9- د. يحيى هاشم فرغل, حقيقة العلمانية بين الخرافة والتحريف, مجمع البحوث الاسلامية القاهرة.
10- د. يوسف القرضاوي, الخصائص العامة للإسلام ,مؤسسة الرسالة, 1977.
11- سيد قطب , خصائص التصور الاسلامي, دار الشروق مكتبة الاسكندرية , جمهورية مصر العربية.
12- عباس العقاد ,التفكير فريضة اسلامية, دار الحديث , 1962.
13-عبدالمجيدعبد الرحيم , مدخل الى الفلسفة بنظرة اجتماعية, مكتبة النهضة المصرية , مصر ,1976.
14- وحيد الدين خان , واقعنا ومستقبلنا في ضوء الاسلام, ترجمة د. سهير عبد الحميد.

References

1- Holy Quran
2- Ahmed, Fouad Al-Basha, The Philosophy of Natural Sciences in the Islamic Heritage, Dar Al-Fikr Al-Arabi,.
3- Al-Zaman Newspaper, Methodological and Cognitive Characteristics of Approaching Quranic Terminology, Turkey, 2021.
4- Al-Dahlawy, Abdul-Aziz, Summary of the Twelver Masterpieces, Imam Al-Bukhari Library,..
5- Al-Rishhouri, Muhammad, The Balance of Wisdom, Dar Al-Hadith, 1422.
6- Al-Muttaki Al-Hindi, Treasure of Labor, Dar Al-Kutub Al-Ilmia, Beirut.
7- Al-Kulayni, Muhammad bin Yaqoub, Al-Wafi, Dar Al-Hadith Research Center.
8- Dr.. Ibrahim Abdel Hamid, Al-Abbad, the Islamic entry, Dar Al-Hikma, Beirut.
9- Dr.. Yahya Hashem Farghal, The reality of secularism between myth and distortion, Islamic Research Academy, Cairo.

10- Dr.. Yusuf Al-Qaradawi, General Characteristics of Islam, Al-Risala Foundation, 1977.
11- Sayyid Qutb, Characteristics of Islamic Perception, Dar Al-Shorouk Library, Alexandria, Arab Republic of Egypt.
12- Abbas Al-Akkad, Thinking is an Islamic Obligation, Dar Al-Hadith, 1962.
13- Abd al-Majid Abd al-Rahim, Introduction to Philosophy with a Social View, The Egyptian Renaissance Library, Egypt, 1976.
14- Waheed Al-Din Khan, Our Reality and Our Future in the Light of Islam, translated by Dr. Suhair Abdel Hamid.